أزمة الأيدز : منظور اجتماعي – ثقافي إسلامي(*)

د. احمد محمد الحسن شنأن(**)

مدخل

هذا الكتاب وليد رحلة طويلة في التأمل والبحث والخبرة التراكمية للمؤلف بدأت بحديث تلفزيوني مطوَّل عن الوقاية من مرض الأيدز بدعوة من مدير إقليم شرق البحر المتوسط لمنظمة الصحة العالمية، وفى ذلك الحديث الذي تمّ بالقاهرة 1989م وشارك فيه عدد من الخبراء العرب ومجموعة من طلاب الجامعات المصرية ، أدرك بدري جيداً تجاهل المختصين لدور الإسلام في الوقاية من أخطار وآثار الأيدز وظلّ ذلك الأمر هماً متصلاً للعالم " الداعية " حتى ظهر هذا الكتاب إلي حيز الوجود ، واشتمل الكتاب على "11" فصلاً ومقدمة وأُلِّف باللغة الإنجليزية في أسلوب رفيع ينم عن براعة الكاتب المعهودة وتمرسه في التأليف بها ، ويبلغ الكتاب 333 صفحة من الحجم المتوسط وطباعته أنيقة تتخللها رسومات ساخرة تعبِّر عن مضمون الكتاب.

وقد جاءت فاتحة الكتاب حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام " لم تظهر الفاحشة في قوم قط إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا " [1] . ثم اقتبس المؤلِّف نصاً للكاتب الأمريكي روت – برنستين يقول فيه "إذا رجعنا قليلاً إلى العقد الماضي ، وسألنا لماذا ظهر الأيدز كمشكله للمخنثين من الرجال ، على الرغم من الاعتراف بالممارسة الجنسية المثلية ، سيكون الجواب واضحاً: أصبح الأيدز مشكلة ووباءاً حينما عمت الفاحشة وأصبح الاتصال الجنسي بين الرجال شائعاً بطرق شاذة لم تعرف من قبل ، علاوة على الإمعان في تناول الخمر والمخدرات" .

وتتجسَّد الفكرة المحورية للكتاب في أطروحة مفادها أنّ الأيدز هو نتيجة طبيعية للثورة الجنسية التي تأسست على مذهب الحداثة واللادينيه الغربية ، وأنه بذلك يمثل مظهراً من مظاهر التركيبة النفسية والاجتماعية والفلسفية للحضارة الغربية .

وفى هذه الورقة نحاول قراءة الكتاب في اختصار غير مخل ثم نسجل من بعد ، بعض الملاحظات ، غير أنى في البدء استميح القارئ عذراً لأبيّن ما حملني لإعداد هذه الورقة قارئاً لهذا العمل الرائع :

أولاً : معرفتي بالكاتب العملاق لأكثر من عشرين عاماً بدأت بالتلمذة في السنة الأولى الجامعية ، حينها تعلمنا منه الحروف الأولى في معنى التأصيل والأصالة الفكرية ، ونهلنا ما قدر لنا من علمه الغزير ، ثم صحبناه من بعد ، في مجال التدريس بالجامعة ، وشهدنا على مدار عقدين من الزمان روائع إنتاجه العلمي .

ثانياً : احتفالاً بالأعمال الكبيرة ذات المضمون الهادف والرسالة الحية ، فقد عالج الكاتب مسألة الأيدز بوعي وبصيرة وقدَّم للعالم أجمع أجمل مرافعة في وثيقة " حقوق الإنسان " الفطرية .

(*) Badri: M., 1998. The Aids Crsis: An Islamic Socio- Cultural Perspective, Kulalambur.

(**) أستاذ مشارك – علم النفس ، جامعة الجزيرة.

[1] سنن ابن ماجة .

ثالثاً : نال الكتاب جائزة أفضل مؤلَّف في مجال الطب الإسلامي لعام 2000 كما أعيد طبعه مرات عديدة ونفدت جميع الطبعات من المكتبات .

رابعاً : عمل متفرد وغنى مثل هذا يجب تعميم الفائدة منه للقارئ العربي وطلاب العلم بترجمته وقراءته على نحو ميسر .

متن الكتاب

في الفصل الأول ، قدَّم المؤلف شرحاً لماهية الأيدز واصفاً إياه بطاعون القرن العشرين وبادئاً بوصف الجهاز المناعي في حالته السَّوية بأنه هدية ربانية وهبها الله لنا حماية من الميكروبات والأمراض التي تنتشر في البيئة الطبيعية من حولنا ، فإذا ما نجح فيروس الأيدز في الدخول إلى جسم اللإنسان عبر الاتصال الجنسي أو الدم الملوث أو أي طرق أخرى فإنه سرعان ما يبحث عن خلايا تستضيفه ، ثم يستعد رويداً رويداً لمعركة شرسة مع الخلايا التائية المسئول الأول في جهاز المناعة ، وبما أنّ هذه الخلايا أيضاً تأخذ في التأهب والاستعداد للمعركة بمحاولة التكاثر السريع والالتفاف حول الفيروس الغازي ، إلا أنها سرعان ما يأخذها العناء فتتناقص وتتضاءل أمام التكاثر المفزع للفيروس فينهار جهاز المناعة ويفقد جسم الإنسان قدرته على التصدي للأمراض الميكروبية ويغدو نحيلاً وهزيلاً ، على أنّ الوصمة الاجتماعية التي تصيب الفرد تظل أكثر إيلاماً ، نسبة لارتباط هذا المرض بالممارسات الجنسية غير الأخلاقية ، ويمضي بروفيسور مالك شارحاً الآثار الطبية والنفسية والاجتماعية والأخلاقية لمرض الأيدز، على أنّ المؤلف يذكرنا بأنّ أي كلام عن الأيدز يجب أنّ يأخذ في اعتباره التاريخ الأوربي بمؤثراته الفلسفية والدينية والنفسية والاجتماعية التي أفضت إلى ما يعرف بالثورة الجنسية ، وتحلُّل الناس من الالتزام الأخلاقي والاجتماعي ، في إطار البحث عن الحرية الفردية والتحرُّر من قيود الكنيسة ، تبلور ذلك في الفلسفة التي سادت في عصر النهضة ومن بعد ، عصر التنوير ثم بلغت ذروتها فيما عرف بمذهب الحداثة وما بعد الحداثة والتي يعزو إليها الكاتب توسيع مفاهيم الحرية الجنسية والإباحية المطلقة ، والإمعان في الحصول على المتعة الجنسية بكافة الوسائل وبأي لون يريده الإنسان ، أدت هذه المفاهيم إلى أنماط سلوكية واتجاهات جنسية شاذة تعزَّزت بممارسات تعاطى الخمور والمخدرات . إذن، يقول المؤلف أنّ الأيدز ما هو إلا نتاج طبيعي لمفاهيم فلسفة الحداثة ، ويختم المؤلف فصله الأول بقوله أنّ الأيدز ربما يصبح المرض الأول الذي يطلب البراءة منه إذا ما تقدم المرء للزواج حسبما تشير الاتجاهات السائدة الآن في ماليزيا .

في الفصل الثاني والثالث والرابع توسع الكاتب في مناقشة الجوانب الأخلاقية والتاريخية والثقافية والفلسفية والنفسية – الاجتماعية واللغوية والإتصالية والطبية المتعلقة بالثورة الجنسية الحديثة ، بهدف تعضيد فكرته المحورية وهي أنّ الثورة الجنسية نتاج طبيعي لفكرة الحداثة اللادينية ، وترتب على ذلك ، أنّ الجنس أصبح سلعة تباع وتشترى بعيداً عن مجال الأخلاق ، يمارس بأي صورة ممكنة في أي وقت ممكن مع أي شخص ممكن ، ويذهب بدري إلى أنّ هذه الممارسات قد طالت علاقات جنسية بشرية مع الحيوانات، ويشير المؤلف إلى أنّ هذه الثورة الجنسية على الرغم مما وجدته من تعبير بركاني عن نفسها إبان الستينات والسبعينات من القرن العشرين ، إلا أنّ زماناً طويلاً أخذ أوربا وأمريكا لكي تصلا إلى نقطة الانفجار الحالي ، وأن تتخلصا من مصطلحات ومفاهيم الزنا واللواط وتستعيض عنها تدريجياً بمفاهيم مثل الفاحشة ، الجنسية المثلية، وهذه أيضاً تغيرت فيما بعد لتصبح " العلاقات الجنسية غير الزواجية " ، "الجنس مع شركاء متعددين"، " وبدائل

الجنسية المثلية " ولعله واضحاً أنّ تغيير واستبدال هذه المصطلحات جاء مرتبطاً بتغيير في الاتجاهات النفسية والاجتماعية نحو الجنس .

ويضيف بروفيسور مالك ،إلى ما تقدم ، عامل آخر تجاهله الباحثون الغربيون لأنه يمثِّل سلوك اجتماعي متصالح مع المزاج الغربي العام ولكنه بالطبع عامل مؤثر في انتشار الأيدز ، ذلك هو تعاطى الكحول الذي يلعب في اعتقاد المؤلف دوراً ترويجياً للممارسات الجنسية ويضيف قائلاً مع أنّ هذه الدول الصناعية تعلم تماماً مخاطر تناول الكحول إلا أنها أصبحت صامته وعاجزة مكبلة الأيدي تحت رزيح مفاهيم الحداثة والثورة الجنسية؛ والحرية الفردية لأنّ التجربة المريرة لفشل حملة منع الكحول في أمريكا في عام 1920م ظلت حيه في ذاكرة تلك الدول.

وعالج بدري في الفصل الخامس مسألة من أين جاء الأيدز ؟ جاء من السود إلى البيض ؟ أم أنه صنع في الولايات المتحدة الأمريكية ؟ فيسوق في ذلك الشواهد العلمية الموثقة الواحد تلو الآخر إلى أنّ يقرر أنّ الأيدز ليس هو بضاعة أفريقية قد سببها القرد الأخضر للأنسان الأفريقي ثم أنتقل بعد ذلك إلى أمريكا كما أنه لم يأتينا من مجرة فضائية مقتحماً علينا الكرة الأرضية ولم يصنع كذلك في أضابير المعامل الحربية الأمريكية؛ الأيدز ببساطة شديدة هو مرض جنسي ناتج عن الممارسات الجنسية المنحرفة الشاذة التي يتعاطاها الأمريكيون الشواذ جنسياً. ويستدل بدري على ذلك بأنّ الاسم الصحيح للمرض عندما ظهر أول مرة هو GRID" وليس "AIDS" ويشير مصطلح GRID إلى Deficiency Gay- related Immune أى نقص المناعة الناجم عن الممارسات الجنسية المثلية ، والأمر "كذلك ، في - نظر الكاتب – يصعب على أمريكا وهى على احتفالها بتسنم ذرى الحضارة الحديثة أنّ تتقبل أنّ تكون هي مصدرة هذا الوباء إلى بقية دول العالم ، كيف لا ، وهى تضع العالم على مشارف نهاية التاريخ ، كما يدعى فوكوياما. هذه الحالة الأمريكية ، تؤدى إلى ما يسميه علم النفس الاجتماعي " موقف معرفي تناقضي " والذي تصاحبه عادة خبرة نفسية أليمة ، ولعل هذا الفهم يوضح لماذا ينحو الكُتَّا ب الغربيون باللائمة على الأفارقة فيما يعرف بنظرية " القرد الأخضر " ، هذا مع وضوح الشواهد والأدلة التي تفند ذلك ، ومن الطرف الآخر فإنّ الأفارقة يصفون تلك النظرية بأنها متحاملة ، ومشحونة بعداء الرجل الأبيض وعنصريته البائنة نحو الرجل الافريقي .

ويلخص بدري النظرية السالفة الذكر بإيجاز شديد ، أنّ فيروس الأيدز انتقل من القرد الأخضر الأفريقي إلى الرجل الأفريقي ، ومنه انتقل إلى سكان جزر هايتي ومن ثم إلى الأمريكان ، كل ذلك التطويل والالتفاف ، دافعه الهروب من الحقيقة المرة أنّ المرض نشأ وترعرع في جماعات الشواذ جنسياً المنتشرين في شوارع وأزقة مدينة سان فرانسسكو الأمريكية ، ويصف بدري ذلك الزعم الأمريكي بأنه خطل كبير وظلم صراح وأنه من بعد ذلك محاولة أمريكية بائسة لفك التناقض المعرفي البائن ويستخلص المؤلف من ذلك الادعاء أنه حتى إذا اكتشف لقاح لعلاج ومكافحة الأيدز فإنه لن يكون عاصماً من الإصابة بمرض آخر يظهر بفعل طفرة جينية أخرى اللهم إلا إذا تغيرت اتجاهات الحداثة النفسية والاجتماعية تجاه الثورة الجنسية وتعاطى الكحول والمخدرات . ويقول المؤلف أنّ هذا الاعتقاد يشاركني فيه بعض من الباحثين الغربيين أنفسهم ، ويستشهد في ذلك بمقولة برنستين التي أوردها الكاتب في فاتحة كتابه .

وفى الفصل السادس يتساءل الكاتب ساخراً هل "HIV" نمر متوحش ، أم قطة أليفة أو قطة أليفة تحولت إلى نمر متوحش ؟ مشيراً بذلك إلى الجدل العلمي الدائر في الدوائر العلمية والطبية حيث يعتقد معظم الباحثين أنّ المرض الواحد يسببه فيروس واحد حسب المنطق العلمي المنسوب إلى العالم لويس باستير وعليه أصبح الاعتقاد السائد في هذه الأوساط المهنية هو المعادلة المجردة "HIV" AIDS أي فيروس الأيدز = الإصابة بمرض الأيدز" .

وفى نظر الكاتب أنّ المصادقة على هذه النظرية من قبل المؤسسات الطبية العالمية مثل " منظمة الصحة العالمية " و" مركز التحكُّم والسيطرة على الأمراض " بالولايات المتحدة ، قد أسبغ عليها المصداقية العلمية وشجع الباحثين في التركيز فقط على علم الفيروسات بغية إكتشاف علاج ناجع لهذا الداء .وفى إشارة من الكاتب بعدم ارتياحه لذلك الاتجاه ، يقول أنّ ذلك الفريق قد أغفل تماماً تأثير الممارسات الجنسية الشاذة وتعاطى الكحول . وفى خضم ذلك ، تأخذ الساسة وقادة المجتمع غمرة النشوة بأنهم رصدوا الأموال الطائلة لمكافحة الأيدز ووضع حدً لنهايته ، متناسين دور الممارسة الجنسية الخاطئة في إدامة المرض ، فاسمع للرئيس الأمريكي السابق كلينتون يعلن على الملأ بقسم عظيم أنه رصد أموالاً طائلة لمحاربة الأيدز ، والذي هو في رأيه " ببساطة هو مرض وليس هناك مرض من قبل استعصت علينا هزيمته " .ويضيف " هدفنا العام في نهاية الأمر لابد أنّ يكون علاج الذين أصابهم فيروس الـ"HIV " من الأحياء وإيجاد مصل يحصن البقية منّا ضد هذا الفيروس " وكأني به – على حد تعبير الكاتب – يطمئن شعبه بأنّ المرض ستتم ملاحقته وهزيمته وما عليكم إلا أنّ تستمروا ، أيها السادة في الاستمتاع بنمط الحياة الأمريكي كما ينبغي .

ويمضي بدري شارحاً تناول الأزمة في المؤسسة العلمية الغربية وناقداً للنظرية التي تركِّز فقط على علم الفيروسات ، فيسوق الشاهد تلو الآخر في براعة ودقة وتوثيق محكم على أنّ المؤسسة الأكاديمية الأمريكية قد توصلت واقتنعت تماماً بالأسباب الحقيقية لانتشار الأيدز، إلا أنّ باحثيها لا ذوا بالصمت وأخفوا نتائج أبحاثهم ، تفادياً لسطوة الإعلام وخوفاً من مواجهة جمعيات الشواذ جنسياً وجماعات الضغط ، وحجب الدعم المالي عن أبحاثهم ، تماماً كما حدث للباحث سونابند عام 1983 حينما أعلن بجرأة ، أنّ نمط الحياة الذي يتعاطاه الشواذ جنسياً هو السبب الحقيقي وراء أزمة الأيدز. ويقول بدري : أنّ موقف هذا الباحث الأمين ، يعني تحويل الأنظار من الإشارة باتهام الآخرين إلى اتهام المواطنين الأمريكيين ، وفى رأي مالك هذا وحده سبباً كافياً للتنكيل بالباحث سونابند في المحافل البحثية والعلمية والإعلامية ، ويسوق بدري شاهداً آخر على عسف المؤسسة العلمية الأمريكية ووقوعها تحت سيطرة الهالة الإعلامية والسياسية والاجتماعية للثقافة الغربية حيث يذكر مقولة الباحث الأمريكي الشهير برنستين " لقد أمعنت النظر والتحليل في المعلومات الطبية فوجدت نظريتنا عن الأيدز مليئة بالثقوب الواضحة والتناقضات المشوشة ، والمفارقات البائنة ، أنا لا أقول هنا أكثر مما قال به الأدب الطبي عن الأيدز ، ولكن الفارق الوحيد أنني أستطيع أنْ أقول ذلك جهرة وعلانية على صعيد الحياة العامة بينما لا يستطيع معظم الباحثين والعاملين في مجال الأيدز ذلك " .

لا يستطيع الباحثون الغربيون – في نظر الكاتب – أنْ يشيروا صراحة إلى الثورة الجنسية ، إلا أنّ نتائج أبحاثهم توضح بجلاء أنّ الثورة الجنسية هي أم الكبائر وهى القضية وموطن الداء ،ولهذا السبب يتوقع بدري أنّ فكر الحداثة الغربي ، وثورته الجنسية سيستمران في تجاهل الدليل العلمي القائم في وجه أطروحة البحث عن لقاح تحصين ضد الأيدز بدلاً عن تغيير اتجاهات الإباحية الجنسية المتجذرة في الثقافة الغربية .

ويذكِّر بروفيسور بدري - القاري الكريم – بعد أنْ تمت مناقشة النظرية القائلة بأنّ فيروز الأيدز "HIV" = الإصابة بمرض الأيدز، أنه الآن بصدد تحليل النظرية المقابلة التي تقول أنّ فيروس الأيدز يتسبب في الإصابة بالمرض ولكنه ليس سبباً كافياً لوحده وإنّما هناك مجموعة عوامل أخرى ذات أهمية بالغة بحيث أنّ تضافرها مع الفيروس يجعل الإصابة حتمية. وبلغة الكاتب الممتعة وتشبيهاته البليغة ، أنّ " HIV " في نفسه عبارة عن قطة أليفة ومع تضافر تلك العوامل يصبح نمراً متوحشاً ، أما العوامل المشار إليها ، فهي الجراثيم والبكتيريا والميكروبات الطفيلية التي أكدت المسوح العلمية أنّ أي شخص تقريباً من مجتمع الشواذ جنسياً يأخذ حظه الوافر منها. و يحرِّر بدري شاهداً قوياً من أبحاث العالم الغربى ليومونتاقنير ، يؤيِّد ما ذهب إليه. وليومونتاقنير هو أحد مشاهير البحث في مجال الأيدز ويعمل في معهد باستير بباريس ، إليه يرجع الفضل في أول اكتشاف لفيروس الأيدز في بداية الثمانينات ، عالم بهذه القامة تكون لأبحاثه أهمية قصوى في تقدير الكاتب وتمثل شهادته التالية صفعة قوية على وجه المدرسة الطبية التقليدية المتمسكة بأنّ للمرض الواحد ، فيروس واحد ، يقول هذا الباحث أنّ جسم الإنسان سيصاب بمرض الأيدز فقط ، عندما يكون "HIV " مصحوباً ببعض الملوثات الباكتيرية والطفيلية ، هذا الحديث يؤيد ما ذهبنا إليه بأنّ فيروس الأيدز إنما هو قطة أليفة تحولت إلى نمر متوحش .

وكما سبق القول فإنّ الممارسة الجنسية الشرجية التي نجمت عن ثورة الحداثة الجنسية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، صحيح أنّ هناك أمثلة في قدماء الإغريق والرومان ، وقوم لوط إلا أنّ أولئك النفر لم يكن لديهم سحر الثورة الجنسية المعاصرة بآلياتها التكنولوجية والإعلامية ووسائلها السمعية والبصرية الجذابة المعضدة بسلطة العلم والتدعيم النفسي الذي تتلقاه من العلوم الاجتماعية العلمانية . كما أنه لم يعرف في ممارسة أولئك القدماء القدر الذي عرف اليوم من خلاعة وتهتك وممارسة يندى لها جبين الإنسانية علاوة على ارتباط تلك الممارسات بتعاطي الخمور والمخدرات ويستشهد بدري بنتائج الأبحاث العلمية الموثقة موضحاً أنّ الممارسات الجنسية الشرجية هي أخطر ما يدمر الخلايا التائية التي هي عصب الجهاز المناعي في الإنسان .

وينتقل بدري بسلاسة عبارته وقوة حجته ليفحص علاقة تعاطى المخدرات والكحول بمرض الأيدز ، مذكراً القارئ أنّ الدراسات العلمية تشير أنّ 95% من الشواذ جنسياً يتناولون بعض العقاقير التي تجعل الممارسة الجنسية الشرجية سهلة وممتعة وتعطيهم الإحساس بالهدوء والاسترخاء ، كما أكدت نتائج الأبحاث العلمية أنّ مثل هذه العقاقير تصيب الخلايا التائية بالخمول والفتور ومن ثم تعمل على إحداث هبوط في الجهاز المناعي ، ويمضى بدري موثقاً نتائج الدراسات العلمية التي تزيد من تأكيد الآثار السالبة لتلك العقاقير ، فيذكر أنّ هؤلاء الشواذ جنسياً ، يتعاطون كميات كبيرة من المضادات الحيوية نسبة لما يعانون من أمراض باكتيرية وطفيلية ، وهذا التعاطي أيضاً يعمل على تخذيل الجهاز المناعي حسب المصادر الطبية ، على أنّ أخطر ما في الأمر – في رأى بدري - هو الدليل الطبي الذي يؤكِّد أنّ الجمع بين المضادات الحيوية وعقار النترات "الذي يتناوله الشواذ للحصول على الاسترخاء" هو من المسببات القوية لمرض السرطان ، ويسوق بدري أيضاً شواهد من نتائج الأبحاث المعملية والطبية على أنّ تعاطى الخمر الذي أصبح سلوكاً شائعاً ومألوفاً في معطيات الثقافة الغربية يعمل أيضاً على إضعاف جهاز المناعة في الإنسان ، وقد لوحظ كثيراً أنّ متعاطي الخمور هم أقل الناس مقاومة للأمراض خاصة الوبائية مثل الكوليرا ، وعلاوة على ذلك ، فإنّ العقاقير التي تستنشق أو تحقن مثل المورفين والهيروين والأفيون ،أكَّد الشاهد العلمي إضرارها البليغ بالجهاز المناعي للإنسان وشل وظيفته الدفاعية . وهكذا يسوقنا المؤلف – ببراعته العلمية المشهودة

- إلى أطروحته المركزية ، أي أنّ الممارسات الجنسية الشاذة وتعاطى الخمور والمخدرات " الوليد الشرعي لمشروع الحداثة الغربي " هي المسئول الأول عن ظهور وتفشي مرض الأيدز في دول العالم .

ويطالعنا الفصل السابع بعنوانه " النموذج الغربي للوقاية من الأيدز : فشل في الشمال وكارثة في الجنوب " حيث يناقش الكاتب الأسس التي قام عليها هذا النموذج -الذي أسماه بالدنماركي - وأسباب فشله ، فيقرّر إبتداءاً أنّ الصورة أصبحت الآن واضحة ، لماذا لا يمكن للحداثة الغربية أ نْ تغيّر اتجاهاتها الجنسية ؟ وهو بلا شك أمر مرتبط بمراجعة الأسس التاريخية والفلسفية والنفسية والتكنولوجية التي قام عليها فكر الحداثة؛ ومن ثم أضحى من الطبيعي أنْ تتبنى الدول الغربية نموذجاً يتسم أولاً بالبعد عن القيم الأخلاقية وثانياً بعدم التدخل في الحرية الفردية ونمط الممارسة الجنسية للجمهور ، هذا النموذج إذن يشجع الناس على الاستمرار في الممارسة الجنسية سواء كانت طبيعية أو مثلية أو سحاقية أو على أي شكل كان ، طالما أنها في نطاق الممارسة الجنسية الآمنة ، بمعنى آخر يجب أنْ تبقى الثورة الجنسية بلا تغيير ، فقط يجب الاحتراز في الممارسة.

ومن ذلك يتضح جلياً – في نظر الكاتب – لماذا حصرت الدول الغربية برامجها التربوية والإرشادية والوقائية فيما يعرف باستراتيجية " الممارسة الجنسية الآمنة " والتي تعني بصفة أساسية ، ممارسة الجنس باستخدام " العوازل الطبية " و" الإبرة النظيفة " و" تجنب الممارسة مع جماعات المخاطرة " بيد أنّ الدَّعوة إلى الإمتناع عن الممارسات الخاطئة ، أو الإكتفاء بعلاقة مع شريك واحد ، أمر غير وارد ثقافياً وإعلامياً في المخيلة الغربية ، وأنّ مثل هذه الدعوة ستقابل بالبرود وعدم القبول من كافة الجمهور ، ولكن الحقيقة المروعة ، في رأى بدري ، أنّ هذا النموذج الوقائي الغربي قد فشل تماماً ، وتشير كل المؤشرات إلى استمرار هذا الفشل في المستقبل. ويعزو الكاتب السبب وراء هذا الفشل إلى الأنماط السلوكية والاتجاهات النفسية والاجتماعية إزاء العلاقات الجنسية السائدة في الثقافة الغربية والمرتكزة على فلسفة الحداثة ، ولك أنّ تتصور – القاري الكريم – كيف يتسنى لمجتمع شاعت فيه الفاحشة والانحلال الخلقي ، وتعاطي الخمور والمخدرات وكافة مدخلات الثورة الجنسية أنْ يسلم من الإصابة بمرض الأيدز وانتشاره وعلاوة على ذلك ، فإنّ الحملات الإرشادية والتوجيهية العامة وجمعيات الوقاية من الأيدز تعطى الناس الاعتقاد الخاطئ بأنّ العوازل الطبية هي صمام الأمان ، حتى أصبحت بعض الدول تصنع أو تستجلب هذه العوازل لكي تجعلها متاحة للجمهور كالماء والهواء ، على أنّ بدري يذكِّرنا أنّ هذه العوازل على الرغم من فعاليتها إلا أنها لا تستطيع التأمين القاطع من خطر الإصابة بالأيدز خاصة أنّ العوازل لها نسبة فشل تصل إلى 15% في موضوع تحديد النسل .

ويعتقد الكاتب أنّ الحداثة الغربية تدرك تماماً فشل نموذجها الوقائي؛ ويسوق شاهداً على ذلك ، من إحصائيات أوردها المركز الأمريكي للتحكم والوقاية من الأمراض ، في فبراير 1995م والتي أوضحت الحقيقة المفزعة وهي أنّ مرض الأيدز هو السبب الأول لوفاة الأمريكيين في العمر بين 25-44 سنة ، وهو بذلك يفوق السرطان ، وأمراض القلب وجرائم القتل . ويقول د. وورد ward المسئول في ذلك المركز أنّ منحنى الإصابة ظل يتصاعد بشدة ؛ ويضيف بدري تأكيده بأنّ الجمعيات الأمريكية والأوربية تعلم تماماً هذه الحقيقة المحزنة، وهى كذلك تتطلع بشغف إلى علاج لهذه المعضلة ، إلا أنّه ليس بوسعها التفكير في أي وسائل أخرى للوقاية من هذه العدوى ، ليست هناك أدنى فكرة أنْ ترجع عقارب الساعة إلى الوراء، إلى التمسك بالقيم الأخلاقية والضوابط الدينية ، هؤلاء الغربيون يفضلون أنْ يدفنوا مئات الآلاف من " شهداء الجنس" على أنْ يفكروا في العودة إلى معتقدات دينية من شأنها أنْ تلعب دوراً حاسماً في الوقاية من الأيدز .

والحال هكذا ، يتساءل الكاتب متعجباً من الباحثين الغربيين ، فعلى الرغم من قناعتهم بفشل النموذج الوقائي الغربي ، لم تصدر منهم أدنى إشارة لتدبر الأمر أو اقتراح أُطر أخلاقية جديدة للممارسة الجنسية ، بل على العكس من ذلك ، كما رأينا من قبل ،فإنّ أساليب الإثارة الجنسية تقنن في وسائل الإعلام الغربية ، وأن صناعة وتجارة الجنس ، والأدب والروايات وكل الملصقات والإعلانات والأفلام والأنشطة كلها موجهة بشدة نحو إثارة المتعة الجنسية عبر الممارسات الطبيعية أو المنحرفة ، فالشباب الذين يتعرضون لهذا التأثير القوى لا يسعفهم الحال في تحرى أي ضوابط وقائية أخلاقية كانت أو مادية وهذه الحالة تذكِّر الكاتب بالحكمة العربية الشعرية الشهيرة " ألقاه في اليم مكتوف الأيدي وقال إياك إياك أنْ تبتل بالماء " .

ويقول بدري على الرغم من الفشل الواضح للنموذج الوقائي الغربي فقد غدا – عبر التوجيه والتأثير الإعلامي – نموذجاً عالمياً يحتذى ، فالمنظمات التعليمية والصحية والاجتماعية قد صادقت على هذه الاستراتيجية وأصبح يبشر بها خبراؤها في كل بلدان العالم باعتبارها النموذج المطلوب عالمياً .

ووفقاً لبدري ، فإنّ " العالمية " المزعومة هذه خطأ فادح ، لأنّ التدابير الوقائية تعتمد في جوهرها على التغيير في الاتجاهات الاجتماعية والنفسية وهذه بدورها مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالثقافة الوطنية لأي مجتمع ، فالوقاية أمر صعب لأنه يتطلب تغييراً جذرياً في العادات والمعتقدات والعرف الاجتماعي ، وهذا يعنى بالطبع أنّ أي مشروع وقائي لابد أنْ يجد مسوغاً قيمياً نابعاً من الثقافة الوطنية وفى هذا السياق يستخدم الكاتب معرفته الغزيرة بعلم النفس الاجتماعي فيشرح كيفية تغيير الاتجاهات بعناصرها الثلاثة – المعرفي – الوجداني – السلوكي وصلتها بالثقافة التي نشأ في أحضانها الفرد أو الجماعة .. وفى مشهد تصويري رائع ، يدعو المؤلف القاري الكريم لكي يتأمل معه ماذا لو افترضنا جدلاً أنْ أصبح تطبيق نموذج إسلامي في الوقاية من الأيدز أمراً لازماً في أوربا وأمريكا؟ وغدا واجباً على المشتغلين بأمر الوقاية أنْ يحثوا الناس على الالتزام بالمبادئ التي تحرم العلاقات الجنسية خارج إطار الشرعية الزواجية ، وتحرم الجنسية المثلية ، ماهي إذن الاستجابة المتوقعة من معظم الغربيين وبخاصة جماعات الشواذ ؟ وكيف يكون الحال إذا قيل أنّ الأيدز هو عقاب رباني حل بالبشرية نسبه للممارسات الخاطئة والخارجة عن الفطرة السليمة، وكيف بالشباب إذا قلنا لهم أنّ الطهارة والعفة والحفاظ على العذرية هي مقومات البرنامج الوقائي . لاشك أنّ الوصف بالرجعية والسخرية والتأليب على المقاومة سيكون نصيب هذا المشروع .

وهنا يتوقف الكاتب هنيهة ليحلل الوضع في البلاد العربية والإسلامية واصفاً الحركات والمنظمات الإسلامية بالتمتع بالبصيرة الحيَّة ، في ازدرائها للنموذج الغربي ونقده نقداً حاداً، وهذا وحده يعتبر سبباً كافياً لتفسير النسب المتدنية للإصابة بهذا المرض في تلك البلدان .. ففي الوقت الذي يتحرَّر فيه الغربيون من الأنماط التقليدية في الممارسة الجنسية ويبتدعون أساليب جديده في الشذوذ الجنسي ويسبغون عليها الشرعية الاجتماعية يزداد الشباب في العالم الإسلامي اشمئزازاً على اشمئزاز من تلك الممارسات ، بل يدعو إلى الطهر والعفة وبترخيص المهور وتسهيل الزواج ، هذه المبادئ مصحوبة بحماس الشباب الدافق تشكِّل مرتكزاً محورياً في مكافحة الأيدز والوقاية من أخطاره ، ويختتم الكاتب هذا الفصل بقناعته، إذا ما أراد الشرق أو الغرب أنّ يصمِّم برنامج وقائي من الأيدز، فعليهما الرجوع إلى الوسائل التقليدية في الإشباع والممارسة الجنسية وعلى ثورة الحداثة الجنسية أنّ تقفل راجعة إلى من حيث أتت ، ولذلك ينصح المؤلف بأنْ أي مجتمع له إرث قيمي وأخلاقي وروحي وديني أنْ يشكِّل من ذلك إطاراً وقائياً من أخطار الأيدز وآثاره .

وعلى هذا النحو أفرد الكاتب الفصول الأربعة الأخيرة من الكتاب لطرح نموذج وقائي إسلامي ، مبيّناً خطورة " الاستزراع " الثقافي لبرامج الوقاية من الأيدز، فالجسم المستضيف لن يقبل الوافد لأنه غير ملائم وغير متصالح ، ومن هذه الزاوية يحزن المؤلف وينعي على الباحثين العرب والمسلمين المهتمون بأمر الأيدز تداعيهم لاستخدام النموذج الغربي في الوقاية من الأيدز بكل تفاصيله الدقيقة ووسائله " العازل الطبي ، الإبرة النظيفة ...الخ " وفي بعض الدول تترجم الملصقات والأفلام والمطبقات ترجمة حرفية .

هذه التدابير في رأي الكاتب لن تفلح بل ستجلب السخرية من قطاعات جماهيرية كبيرة لأنها لا تتناغم مع وجدان الأمة ومشاعرها وفلسفتها وإيقاعها الثقافي ، ويعتقد المؤلف أنّ مهمة الوقاية من خطر الأيدز في العالم الإسلامي يجب ألا تترك لخبراء منظمة الصحة العالمية المستغربين ، أو العاملين الكسالى في مجال الصحة العامة الذين يسعون إلى استيراد الحلول الجاهزة أو الأطباء النفسيين وأهل الخدمة الاجتماعية الواقعين تحت التأثير الغربي وغسيل المخ ممن أصابهم " العمى الثقافي " فعجزوا عن رؤية المميزات والقيم الأخلاقية العالية التي تزخر بها ثقافتهم وديانتهم ، لقد هزم التغريب بإمكاناته المادية والتكنولوجية ، أولئك النفر فأنساهم الغنى الأخلاقي والروحي الذي يملأ شغاف القلب المسلم ، كأنما هؤلاء المستغربين يستوي عندهم استيراد استراتيجية وقائية باستيراد أي تقنية طبية ليزرية .

ويقول بدري لقد رأينا النموذج الغربي في الوقاية قد ترعرع في أحضان الثقافة الغربية بمعطيات الثورة الجنسية وفكر الحداثة اللادينية ، والحرية الفردية فجاءت استراتيجيته الوقائية قائمة على تدابير خارجية وأغفلت تماماً أي تغيير داخلي في نفس الإنسان من النواحي الروحية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية، ونبّه المؤلف العاملين في القطاع الصحي في البلاد الإسلامية إلى قياس مدى النجاح الذي أصابه النموذج الغربي في رحاب ثقافته الوطنية ، فبما أنه قد فشل هناك وفقاً للإحصائيات والإفادات العلمية التي سقناها فإنّه بلا شك سيكون أكثر فشلاً في مجتمعات روحية وإسلامية ، وتأسيساً على هذا المنطق يقرر المؤلف بثقة أنّ أي برنامج وقائي من أخطار الأيدز في البلاد الإسلامية - إذا أريد لـه النجاح - لابد أنْ ينطلق من الأسس والمبادئ الإسلامية وذلك للعوامل الآتية :-

- الإيمان بالله وأداء الشعائر التعبدية الإسلامية تمثل مصدراً واقياً من أخطار الأيدز نسبة للأثر الروحي والسلوكي الذي تتركه على الفرد المسلم وتشكيل اتجاهاته النفسية والاجتماعية .
- الفائدة الروحية من الصلاة والصوم والحج وسائر العبادات ، تجدد الصلة بين العبد وربه وتعمل على تقوية الإطار القيمي والروحي والأخلاقي للفرد. ومن الدراسات الطريفة في هذا المضمار ، دراسة بروفيسور أسامة قنديل – الأستاذ بكلية الطب ، جامعة هارفرد عن الأثر الفيزيولوجي للصيام، وقد أشارت نتائج أبحاثه أنّ الصوم يساعد في تقوية الجهاز المناعي للإنسان وذلك بزيادة الخلايا التائية ، المسئول الأول في النظام الدفاعي في جهاز المناعة ، كما أنّ تجمع الحج هو أكبر تجمع بشرى على صعيد واحد يمكن الاستفادة منه في البعد الإعلامي ، أي التوعية بأخطار وآثار مرض الأيدز .

- دور الشباب المسلم في الصحوة الإسلامية المعاصرة ، يتعاظم كل يوم مما يؤكد أنّ الإسلام لا محالة عائد ، مداً روحياً وثقافياً عارماً يغيّر المشهد السياسي والاجتماعي في البلدان الإسلامية . ويشير بدري لتلك المفارقة إذ أنّ الشباب هو الشريحة المستهدفة في موضوع الأيدز ، بينما هو الآن قائد التغيير الإيجابي في حياة المسلمين .

- الإسلام يحرم تماماً الجنسية المثلية والفاحشة وحتى الممارسات الطبيعية أبان فترة الحيض ، هذه التدابير على عكس الديانات الأخرى ، هي تدابير واقية من عدوى الإصابة بفيروس الأيدز والأمراض الجنسية الأخرى .

- الإسلام يحرم تماماً تعاطى الكحول والمخدرات .

- ختان المسلم ، سنه إسلامية ، فعاله جداً ضد الإصابة بالعدوى ، فقد أثبتت الأبحاث المعملية أنّ الرجل غير المختون هو أكثر عرضةً من غيره في الإصابة بعدوى الأيدز .

- فائدة غسل الجنابة ، تطهير وغسل الأعضاء التناسلية بعد الممارسة الجنسية أمر واجب في الشرع الإسلامي ، وقد أكد الباحثون القيمة الوقائية العالية لهذا الغسل .

ويلفت بدري انتباه القارئ ، بأن هذه الإستراتيجة الوقائية الواعية بالبعد الثقافي والاجتماعي الإسلامي ، ستواجه مقاومة شرسة بسبب الصراع الخفي بين المرجعيات الفكرية والثقافية ، على أنّ ذلك يجب ألاّ يثنى العاملين في الحقل الصحي في البلاد الإسلامية من النقد المتواصل للنموذج الغربي في نواحيه الأخلاقية والفلسفية والنفسية والثقافية والتاريخية ، لأن ثقافة الجنس السائدة في مجتمع ما لا يمكن فصلها عن الانحرافات الناجمة عن الممارسات الجنسية ، ولا عن طرائق معالجتها في ذلك المجتمع .

ويمضى بدري قائلاً ، أنّ الهجوم الذي سيواجهه النموذج الإسلامي لعله مفهوماً في إطار مدافعة فكر الحداثة عن مشروعه الجنسي وكل ما يهدد أصوله النفسية والفلسفية والاجتماعية ، وما أدل على ذلك من هذه السلسلة المتتابعة من المؤتمرات العالمية التي تعقد لموضوع الأيدز ، وكل همها أنْ تنشر البرامج والممارسات ذات الأصول المعرفية والفلسفية الغربية ، ولعل مؤتمر القاهرة الشهير ليس ببعيد عن ذلك ، فقد رأينا كيف تجرأ النموذج الغربي ولبس عمامة الأمم المتحدة في مواجهة القيم والقواعد الأخلاقية التي تحكم مفاهيم وممارسة الجنس في الثقافة الإسلامية وغيرها ، ويتبلور كل ذلك في الحملات المنظمة التي تتبناها المنظمات الغربية لتدمير الأسرة التقليدية، وتمتلك جماعات الشواذ جنسياً تأثيراً قوياً في هذه المنظمات وتشكل لوبي في منظمات الأمم المتحدة ، ولعل السعي في تدمير الأسرة التقليدية ناجم من فهمهم أنها تقف حائلاً أمام مفاهيم وممارسات المساواة الجنسية والحقوق الإنسانية المشروعة في الاستمتاع بالجنس بلا حدود ولا قيود .

ويمضى المؤلف مقدماً نصائح عملية للأطباء والعاملين في الحقل الصحي من أبناء المسلمين أنّ ينزعوا عنهم رداء " الحيادية " المصطلح الذي تسبغه " المهنية الغربية " على نفسها ، والذي يعنى أنّ المعالج يسعى في علاج المريض دون التدخل في خصوصياته الثقافية والدينية والأخلاقية ، يقول بدري أنّ ذلك نمط يجب الخروج عليه من قبل المهنيين الإسلاميين ، يجب على العاملين في مجال الاستراتيجية الوقائية الإسلامية أنْ يتمسكوا بدورهم في تغيير الاتجاهات الاجتماعية والنفسية .. إذن في رأى الكاتب ، فإنّ أولى مطلوبات الاستراتيجية الإسلامية هي الشخص المهني المتمسك بقيمه الدينية وخصوصيته الثقافية والروحية والتزامه بذلك منهجاً علاجياً ووقائياً في حياته المهنية. ويستدعى المؤلف خبراته الثرة في مجال العلاج

النفسي والسلوكي المعرفي ليقترح أساليب علاجية محددة توجه للشواذ جنسياً باعتبارهم منحرفين سلوكياً ونفسياً ، ويجب تبصيرهم بقيمة أنفسهم وإمكانية السمو بممارساتهم إلى مصاف الطهر والاستقامة واحترام الذات كل ذلك باستدعاء البعد الروحي ليكون القوة الدافعة في التغيير المعرفي والوجداني والسلوكي، ويحث المؤلف الأطباء والمعالجين النفسيين بعدم الأخذ بالمفهوم الغربي المتسامح نحو الشواذ جنسياً ، بأنهم ليسوا مرضى نفسياًُ ، ومن ثم يشجع الكاتب زملاءه بأن يؤسسوا ممارساتهم العلاجية على الهدى الإسلامي وأن يستفيدوا من النواحي الروحية في علاج مرضاهم. وذات الأسلوب العلاجي يوصفه بدري لمحاربة تعاطى الخمور والمخدرات ، ويزيد على ذلك أنّ محاربتها مسئوليه مهنية واجتماعية ووطنية يجب أنْ تراعيها السلطة العامة في البلدان الإسلامية. و استناداً على تجاربه الثرة في علاج الإدمان يؤكِّد بدري على فعالية استدعاء البعد الروحي في علاج المرضى فرادى وجماعات ، وقدرته أيضاً في الوقاية العامة وسرعته في تغيير الاتجاهات النفسية والاجتماعية .

ويختم الكاتب ، سفره القيم ، بالفصل الحادي عشر الذي يصف فيه دور الحكومات والإعلام والروابط الإسلامية في المشروع الإسلامي للوقاية من أخطار الأيدز ، فيوضح أنه لا مناص من تكامل الأدوار في أحداث التغيير الاجتماعي الإيجابي ، فالمؤسسات التربوية والتعليمية لها دورها الرائد في هذا الصدد ، خاصة بإفراد مقرر دراسي في التربية الجنسية من المنظور الإسلامي والتوعية بأخطار وآثار الأيدز ، هذا فضلاً عن دور المؤسسات الاجتماعية الرسمية في مكافحة غلاء المهور والاهتمام بمشاريع تسهيل الزواج .. أما الممارسات الجنسية غير الشرعية والمنحرفة يجب أنْ تردع بسلطة القانون وإعماله بلا هوادة .

وأخيراً يرجو الكاتب أنْ يكون بتقديمه لهذا النموذج الوقائي الإسلامي قد ساهم في إرساء منهجية إسلامية لمعالجة كافة القضايا الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية في المجتمعات الإسلامية ، ويضيف بدري أننا نحن المسلمون قد عانينا الأمرين من الاستعمار الأوربي المهين ، ومن الآثار النفسية لمشروع الحداثة لأننا لم نفرق ابتداءاً بين التقدم التكنولوجي والانحدار الأخلاقي والروحي لتلك الحضارة ، ثمار التقدم والرفاه الاجتماعي في رأى الكاتب ، يمكن فقط قطفها من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بأذن ربها .

وبعد عزيزي ، القارئ الكريم :

تلك كانت صحبة ممتعة لعالم فذ ، في سياحة فكرية ، ومرافعة علمية جريئة في طرحها ، أصيلة في جوهرها ، وعذبة في مذاقها ، يحسن بنا أنّ نتوقف قليلاً في تأملها :

- تجلت عبقرية الكاتب في رؤيته الشاملة للموضوع من زواياه الطبية والنفسية والاجتماعية والفلسفية والتاريخية ، فعالجه بتلك الموسوعية في أصالة فكريه ودقة علمية حشدت الموقف التأصيلي وتبصراته النفسية في تشريح الأزمة وتداعياتها العالمية .
- حساسية الكاتب البحثية المتقدمة حملته إلى الوعي العميق بالأزمة وقراءتها من خلف السطور لبحث القضايا الكلية في حياة الإنسان .

- وعى الكاتب بالمتقاطعات والمتوازيات الثقافية ساعده في التحليل الموضوعي للأزمة وتجلى ذلك في عقد مقارنات عبر ثقافية قوية لها قيمتها الأصيلة في علم النفس عبر الثقافي .
- لقد تميز هذا العمل الرائع بالتوثيق الدقيق لنتائج الأبحاث وتوظيفها في صياغة الأطروحة المركزية ومناقشتها بوجه منطقي أوصل المسلمات والفروض بالنتائج في انسياب سهل وعرض ممتع .
- يدعو الكاتب في هذا العمل - وفى غيره من الأعمال الرائدة - المفكرين والباحثين المسلمين إلى التحرر من حالة الاستعباد الذهني الاستعماري ، والتخلص من التأثير الثقافي الغربي في الأداء المهني والبحثي .
- قدَّم المؤلف نموذجاً حياً في الاجتهاد العلمي والفكري الراقي في ماذا يقدم الإسلام من برامج عملية لإصلاح حال البشرية .
- هذه الأصالة في الطرح والعمق في التفكير والموسوعية في المعالجة وحالة الوعي عبر الثقافي التي تمتع بها الكاتب في - رأيي - هي التي رشحته لمصاف الريادة العالمية في العلوم الاجتماعية الإسلامية .